«العمدة» لابن رشيق
عمدة في تحقيق التراث

كانت المطبعة فتحًا مبينًا في عالم الفكر والثقافة ، حيث نقلت المخطوطات من دائرتها الضيقة المحصورة ، إلى دائرة أرحب وأوسع ، وإن فقد الناس لذة المغامرة والكشف ، التي تحققها قراءة المخطوطات ، بخطوطها المتنوعة ، ما بين مشرقية ومغربية . وبشكولها المتباينة التي كان يتفنن فيها الخطاطون من ذوى الملكات والحرفة .

وكان الناس في مصر يعودون إلى هذه المخطوطات حين الطباعة ، ولا يذكرونها ، وحسبهم أن يقدموا نصا جيدًا أمينًا ، وكانوا ذوى قدرة هائلة على الضبط والتحرى ، نحن مدينون لهم بها ، ولا نكاد نشاطرهم إياها إلا من نفر قليل هم ملح الأرض .

في مرحلة تالية يبرز في صدارتهم الأخوان شاكر (أحمد ومحمود) وعبد السلام هارون ، وعلى السباعى ، وعلى النجدى ، ومحمود الطناحى ، والنبوى شعلان، وكلهم على تفاوت أصحاب قامات باذخة في عالم التحقيق ، وداخل معهم طائفة أخرى يعرفهم القراء المتخصصون .

والتحقيق فن عسير ، وإن بدا للأغرار أنه ذلول حتى في زمن الحاسب الآلى ، والتقنية الحديثة ، لأنه في حاجة إلى عالم خبير ، ربما تسعفه بعض الشيء هذه التقنيات ، لكنها لا تحقق ، وهيهات !! .

وثمة نفر ولجوا عالم التحقيق ، وهم ليسوا بأهله ، يحققون المتون ، ومذكرات الطلاب التي كانوا يدونونها عن الأشياخ ، وليس فيها شيء يستأهل العمل ، وبعضهم يجعل تلاميذه يقومون بالجهد . ويكتب الشيخ اسمه محققاً ، ولم يقم حتى بالمراجعة ، ويتلقى الناس هذه الأعمال بالسمعة الحسنة والواسعة التي تقترن لديهم بالأشياخ ، وما تلوا الكتاب ولاخطته أيمانهم !!

وكتاب «العمـدة» لابن رشيق القيروانى ، يمثل - فى رأينا قمـة النقد والبلاغة على أيامه ، ويناصى ما كتبه المشـارقة فى هذين الفنين ، ويمكن أن نعده «عمدة» هذا العـمل لدى أهل المغرب ، جـمع الكتاب آراء المشـارقة فى النقـد والتذوق ، وكان المؤلف يتدخل «بذوقه» المثقف فى النص الذى يعلق عليه ، مادحاً وقادحاً ، ومعللاً فى الأعم الأغلب ، وقد نقل «ثقافة نقـدية» نحن أهملناها كثيراً ، لحساب اتجاهات أخـرى على أهميتـها ، ولكن هذا التراث داخـل فى نسيج «ثقافـة الناقد الأدبى» ، وكان ابن رشيق «طُلَعة» طامح البصر إلى ما يستطيع التوصل إليه ، وقد التقى مع نقاد أوربيين عن طريق «توارد الخواطر» حـين تتجه إلى موضوع واحد ، ولينظر القـارئ - غير مـأمور - إلى التـقاء بندتو كروثى مـع ابن رشيق من وراء القرون، فيمـا يتعلق بسريان العلم إلى الشعر الذى يحول الـقصيدة إلى نظم غث وبارد ، والباحث - عمـوماً - يستطيع أن يطالع بعض مشابهـات أخرى مع النقد الحديث ، وما ذاك إلا لأن العلم واحـد ، وثقافة الناقد وملكتـه فى ذرعها أن ترد عليها خواطر متـجانسة أو متقاربة حين تتجـه إلى موضوع واحد ، ومن ثم يكون التراث داخلاً فى ضميمة الثقافة النقدية الحديثة ، لمن ألقى السمع وهو شهيد .

كان الشيخ محمـد الخانجى قد أصدر نشرته لكتاب «العمـدة» ، ونفدت نسخها إلا قليلاً جداً، ثم أصدر الشيخ محيى الدين عـبد الحميد نشرته ، وهذا الرجل قد اعتمد تماماً على نسخة الخانجى ، دون أن يشير ، وهذه من آفات التحقيق ، ولعل الشيخ كان فى عجلة من أمره فطبع الكتاب دون أن ينظر فـيه مكتفياً بما قيده طلابه فى الأزهر عن هذه النسـخة ، ووضع الشيخ اسـمه عليهـا ، والرجل - عندنا - متـضلع فى اللغة نحوهـا وصرفها ، وكـل ما يتعلق بهـما ، وقد حـضرنا بعض محاضراته أو دروسه من باب معرفة الشيوخ والبحث عنهم، ولم أكن من طلبته ، فكان الرجل معـجبًا فى تعلـيقاته النحـوية ، بصيراً يعـرف الخبء وسر الكلام ، وحين طالعنا بعض تحقيقاته فى التـراث الأندلسى ، وقفنا بالوصيد ، وقلنا : لقد «دخل الأسد غيلا غير غيله» ، فـلا يكاد يستقيم له النص وخاصة الأعلام ، وكنا نجمـجم ولا نكاد نبين ، حـتى جاء محـقق كتاب العـمدة فى طبـعته الأخـيرة ، صديقنا الدكـتور النبوى شعـلان الأستاذ بجامـعة الأزهر ، وأعمل قضـية «الجرح

والتعديل» ، وكشف عن مساوئ التحقيق ، غافلاً عن العيون اليواقظ التى قادت الدكتور شعلان إلى بيان العوار والأخذ ، الذى هو نقيض الأمانة فى صنيع الشيخ- وشهد شاهد من أهلها ، وبَيَّن عَوار التحقيق فى تخريج الآيات القرآنية والأحاديث التى ادعى الشيخ تخريجها ، وهى من نقوله غير الأمينة من تحقيق الخانجى ، ونحن فى حاجة إلى «تحقيق التحقيق» كحاجتنا إلى «نقد النقد» .

جاء تحقيق شعلان شعلة من التوهج ، وقمة من المعرفة بالتراث العربى كله ، وغير عجيب أن يظل المحقق خمسة عشر عاماً فى عمله فى العمدة ، حيث هوامشه الهائلة فى تحقيق الأعلام والتعريف بهم ، وتخريج الشعر والنثر ، وتخريج النثر مما تنوء به همم الرجال ، وجاءت فهارسه آية من التمحيص والتدقق، وأثبت امتلاكه الشديد للعواصى من الكلام ، وتذوقه الجيد للشعر ، وتعليقاته ، وليس هذا النص بكتابه الوحيد ، بل إنه أخرج طائفة جيدة من التراث الشعرى والبلاغى ، ولعله فى كل هذا يذكرنا بصنيع فرسان التحقيق ، ويعيد لمعهده وجهاً تغشاه كثير من الادعاء والتراخى ، وينتسب إلى تلك المدرسة الشاكرية بأعلامها ، وتلاميذها محمود شاكر والطناحى ، وعادل سليمان ، وغيرهم ممن أدوا ويؤدون خدمة جليلة لهذه الأمة ، التى تتخطفها رياح التغريب بكثير من التنفج والادعاء ، وبِوَشَلٍ يسير من المعرفة والنقد القديم ، تحية لهذا الجهد الكريم الذى لا يعرفه إلا من كابده ، والذى يصل ماضياً عظيماً بحاضر نرجو أن يتصل بخيطه الذهبى ، وأن يطير الجناحان معاً ، إذا أردنا لأنفسنا أن تظل الجذوة متقدة وذاكية .

جنة الرضا لابن عاصم الغرناطى

درج الناس أن يقولوا : إن هذا كتـاب يسد فراغا هائلا فى المكتبة العـربية حتى صارت الكلمـة من العبارات المسكوكـة ، تقال فى محلهـا وغير محلهـا ، وغدا الناس لا يثقون فـيها ولا فى قائلها ، إلا أننا إزاء هذا الكتـاب ننزع عن الكلمة ما لحقها من تداول غير حقيقى لنقولها عذراء عن كتاب «جنة الرضا» ونحن آمنون أن القارئ سيقولها معنا ، حين يقف على أهمية كتاب فى خطورة كتابنا هذا .

والمكتبة الأندلسية عامة ، والـغرناطية خاصة لاتزال فى انتظار من يكشف عنها غبار الخمول ، وإن كانت هناك جهود محمودة يبذلها العاكفون على التراث تحقيقا ونشرًا وقراءة واستيـعابًا ، ولا يكفى لهذه المكتبة أن يعرف المحققون العـربية معرفة وثيقة ، بل إنهم فى حاجة ماسة إلى معـرفة الإسبانية ، حتى الطور القديم منها ، ومن هنا تكمن الصعوبة فى ولوج مثل هذا الحقل العسير من التراث العربى عامة، والأندلسى منه خاصة .

مؤلف هذا الكتـاب من دوحة تفيـأت ظلال العلم والوزارة والقضاء والفـقه ، فأبوه أبو بكر بن عاصـم الوزير الفقيه القاضى ، ومـؤلفاته متعددة أهمـها حدائق الأزاهر ، والابن يتولى مناصب متعددة فى دولة بنى نصـر ، ويصيبه من سعودها ونحوسها كـثير ، مما يعترى ذوى المناصب الخطيـرة فى دولة ، تتأرجح فوق هاوية من الزئبق السياسى ، تحوطها سياجات من الغدر والنفاق والحقد ، تنال من يتعلق منها بـطرف ، فما بالك بمن يـرسمهـا ويخطط لها ، ونديم السلطـان مثل راكب الأسد .

اتفقت المصادر المشرقية والأندلسـية على نعت مؤلف هذا الكتاب أبى يحيى بن عاصم بنعوت متواترة منها ما قاله المقرى عنه «الإمام العلامة الوزير الرئيس الكاتب الجليل البليغ الخطيب الشاعر المفلق الناثر الحجة . إلى آخر ما قاله المقرى وغيره ، وقد توفى ابن عاصم سنة ٨٥٧ هـ ، أى قبل سقـوط غرناطة بنحو أربعين سنة ،

وعاش كما عاش قبله ابن الخطيب ، وتسنم تقريبا الوظائف نفسها التى تسنمها لسان الدين قبله ، وربما أصابه ما أصاب سابقه من محن ، ولقى كلاهما المصير نفسه قتلا ، حيث ذبح ابن عاصم حين ذبح سلطانه محمد التاسع المنبوز بالأعسر .

وإذا كان كثير من الوزراء ينسون بعد عزلهم أو موتهم ، فإن الوزير ابن عاصم خلدته مآثره العلمية والأدبية ، وأصبح لقب الوزارة لا يزيدنا معرفة به . وللرجل كتابات كثيرة ، وصل إلينا بعضها ، لكن أهمها هو كتاب «جنة الرضا» ، وكأننا بالمؤلف فى عصر من أسوأ عصور الإسلام بالأندلس ، إنما أراد أن يسلى مواطنيه على طريقه «الفرج بعد الشدة» بما حدث من الأنواء العاصفة والرزايا القاصفة ، ولم يكن الرجل يحذر مواطنيه على طريقة الرضا بالتطبيع ، الذى كان يتسلل واضحا وغير واضح فى المجتمع الغرناطى ، والبلاط الغرناطى خاصة ، حيث تراوحت السياسة بين المهادنة والحرب ، وبين النصر والهزيمة ، وكانت أكثر ، حتى ضاعت غرناطة غدراً وخيانة وهزيمة أيضًا ، لم يكن الرجل كذلك بل كان يبث فى كثير من الأحيان الثقة ، وإن كانت ظلال اليأس تلقى بكثافتها .

وإذا كان الرجل يستجلب وقائع الدهر متخذًا منها مثلاً وعبرة ، فإن أهمية الكتاب تكمن فى أن المؤلف من رجال الطبقة الحاكمة ، ويرى ما لايراه عامة الناس ، ويورد حوادث تاريخية هو مشارك فى صنعها وراصد لها أيضا ، وهذا الرصد مما يزيد من قيمة الكتاب حيث صاحبه شاهد عصر وصانع أحداث ، وربما يشارك ابن حزم فى إيراد حوادث هو صاحبها أو رآها رأى عين ، وهى حوادث نادرة عن أعلام عصره ، كما أنه ينقل أشياء لم ترد إلا فى كتابه حيث ضاعت أصولها أو لم تنشر بعد ، وكثير من هذه الأشياء موظفة لغرض واحد أراده المؤلف، وهو معالجة المحن والكوارث التى تصيب الأفراد والأمم ، ويوجه خطابًا إلى أهل غرناطة له قيمة تاريخية هائلة .

وبعد أن أورد المؤلف فى مقدمته أبواب الكتاب نثراً ، نظمها شعراً فى قصيدة بلغت مائة وعشرين بيتا ، نجت فى أغلبها من جفاف المنظومات العلمية ، مما يشى بأن صاحبنا شاعر فى زمن سطت فيه عجمة التكلف والتمحل .

ومحقق الكتاب هو الدكتـور صلاح جرار ، ونشره فى الأردن ، وهو رجل له قدم راسخـة فى تحقيق نص عـسير كهـذا ، مستوفـيا شرائط التحـقيق العلمى ، وتدسس إلى طريقـة المؤلف وأسلوبه العـسيـر الذى يشبـه أسلوب ابن الخطيب ، وتحية المحقق واجبـة حين نقرأ من خلاله سفرًا جليلاً تجول تضـاعيفه ما بين تاريخ وسيرة ذاتية وأدب وفن وأخلاق فهو جنة الرضا ، يسد فراغاً هائلاً - كما قلنا آنفاً في المكتبة الأندلسية .

أبو فهر
ذلك النمط الصعب

أبو فهر ، محمود محمد شاكر ، أى نمط من الرجال هو !!؟

رجل تحدى الألقاب والبرامج الدراسية الرسمية ، واعتزل الناس ، معتنزاً بفناء داره ، آبياً أن يأخذ فيما هم آخذون فيه ، بيد أنه تحدى الألقاب - فى زمن الألقاب وفى مصر ذات العراقة فى الكهانة - لتسعى إليه الألقاب ، وتحدى البرامج الدراسية ، ليكون هو نفسه برنامجاً ، تهفو إليه هاته البرامج ، واعتزل الناس ، ليحج إليه الهافون ثاوين إلى فيئه ، وليكون مأنوسا فى عزلته الاختيارية المأهولة !!

نمط من الرجال صعب ، غير ميسور تواتره ، فى زمن التوسط والتشابه ، وليست صعوبته من الضرب المدبب الشائك ، بل هى صعوبة الجد ومرارته ، وأخذه نفسه ولزومها ما لايلزم ، دون تكلف وقطوب ، حيث إن مجلسه ليتسع ويتراحب للإحماض ، دون تدنٍ ودون انفراط وهزل .

هذا النمط الفكرى والنفسي حقيق أن يبين صدقه فى إبداعات صاحبه ودراساته، فلا يفلت من شيات هذا الزى ، الذى هو إهابه المغزول من دمه وعصبه، وأن يكون عنوانًا له وعنوانًا عليه ، فلا سبيل فيه إلى الانمياع ، ولذا لا يعتم المرء حين يطالع ثمرات قريحته إلا أن يمهرها باسمه دون تداخل ، وهى عسيّة ألا تقلد ؛ لأن تقليدها يكون شائهاً مرذولاً ، ولأن «عملاقية» صاحبها شخصًا وفكرًا تتأبى أن يحتجنها مقلد أحول الفكر ، ضرير القلم ، وتلك سمة أصالة ، صحيح أن الأستاذ شاكر يغرى بالاحتذاء ، بيد أن قامته صعبة ، تتقاصر دونها القامات ، فى محاولتها مضاهاته أو الاقتراب منه ، ولذا يكون من الصحيح كذلك أن يكون شاكر هو شاكر ، وإن حاولنا أن نرى فيه أمشاجًا من القدماء أو المحدثين كالرافعي، ولكن هذه الأمشاج آضت فى تجاليد شاكرية ، من آفة النظر

التوقف عندها ؛ لأن الرجل ينفق عن سعة، وسعته هى كل ما ورثه عن سلفه العظيم .

أبو فهر يحتشد تمامًا لكل ما يقرأ ويكتب ، واحتشاده من نوع خاص فى تاريخ الأدب العربى ، حيث ترفده ثقافة وسيعة حصلها بنفسه ، ونظر عميق ، يتراحب فى كل ما أثمره العقل العربى من الفقه والتفسير والحديث ، وأصول الدين ، وعلوم الرجال والتاريخ ، والأدب العربى شعره ونثره ، فى إحاطة مذهلة ، ولذا ينبغى على كل من يقترب منه أن يحتشد بعض احتشاده ، وألا يكون مئوفا بالهوى الذميم وضيق الأفق ، لكى يتدسس إلى مرامى القول ، وهى عصية ، وإلى مناحى فكرة ، وهى قصية ، ولعله بعد هاته المجاهدات الصابرة ينفذ إلى الكلام وصاحبه ، ولا يعنى ذلك أن الرجل يتعاظل أو يكلف الأشياء ضد طباعها ، بل إنه أمين لفكره وفكر أمته التى يعزى إليها ، ومن الأمانة المتوخاة أن يصدق فى التعبير عن فكره وفكر أمته ، أما الذين فى قلوبهم زيغ ، وفى عقولهم آفة ، وفى نظرهم زغل ، فالرجل ليس بسبيلهم ؛ لأنه لايتملق فكرهم ، ولايدغدغ شعورهم ، بل إن بعض هؤلاء لو أحسنوا استخدام نعمة الله عليهم ، لفاءوا إلى فكر الرجل ، ولوجدوا فيه ما يروى الصدى ، وينقع الغليل مع بذل الجهد الذى يفك مغالق ، وينسف سدودا .

ومن ارتكاس الأذواق ، ومسخ السلائق أن نريغ من الرجل ورصفائه التنزل إلى الناس ، لأننا بذلك نشجع الجهل والحطة ، وواجب المفكر أن يرفع إليه الأذواق لا أن يتسفل بها ، والمضنون به على غير أهله يجب أن يتبوأ مكانا سامقاً ، حيث يتطلع إليه من لديه أثارة من همة ، ويشرئب إليه من فى قلبه جذوة من عزيمة ، تأبى الإخلاد إلى الاستكانة والخذلان ، ومن فضائل الأستاذ شاكر الكبرى أنه أبى هذا التنزل ، وأنه نفخ فى تلك الجذوات ، فتطلعت إليه - فى اختياله ومجادته - مختالة متمجدة ، عائذة من الخذلان .

ومحمود شاكر عقاب العربية ، أخلص لها الإخلاص كله ، واستوعب ذخائرها وأعلاقها ، دون أن يشل فكره ونظره ذلك الاستيعاب ، محققًا وناقدًا ومؤرخاً ، وشاعراً ، وله فى كل ذلك إسهامات موفورة ، تشى بنظر لا يقف عن

الماضى وإن كان مجيدا ، ولـذا يخطىء الناس حين يظنون أن «شاكرًا» رجل تراثى بالمعنى الردئ للكلمة ، تحجرًاوانغلاقًـا ، بل إنه - شخصًا وفكرًا - يسبق خطوات زمنه ، دون أن يجـتث جذوره ، حـيث لا مـجال للاجـتـثاث ، ولا يحـسن أن يحدث، رجل طلعة ، وإن بدا فى مسلاخ القدامى ، ينفتح على كل التيارات التى تتمـاوج فى زمنه ، على المستـوى الشخـصى والفكرى ؛ حين يضم مـجلسه كل الاتجاهات والتـيارات المتناقـضة ، وإن كـان صبره ينـفد أمام «أطفـال الجمـاعات الإسلامية» كما ينعتهم ؛ لأن الفكر الحر شارته وعنوانه الأول . وإن بدا هذا غريباً على بعض الآذان التى تصدق ما يشيع وإن كان يشيع فيه البلى والاضطراب ، غير أن البابة الكبـرى التى نعرف منها محـمود شاكر هى بابة الأديب الشـاعر ، ولولا هذه الملكة لما كـان المحقق والناقـد والمؤرخ بهذا المسـتوى من النفاذ ، وكـأين من محققين ونقـاد ومؤرخين لا تشتعل فى نفوسهم جذوة «الفن» ، فـيخرج كلامهم غـسيـلاً ، وعـملهم أقرب وأوشج بعـمل أهل الاخـتصـاص ، أو بعـمل بعض الجامعيين الخفاف ، الذين يظنون أنفسهمم نقادًا ومحققين ، وهم دائمًا بالوصيد ، يمكن أن يجيدوا فى بعض الأعمال القريبة من «الصنعة» ، لكن باب الطبع - ولو اشتعل بِجُذَيَّة صغيرة - يكون عسير الولوج .

ولعل كتابه «نمط صعب ونمط مخيف» ونشر منجماً قبل ذلك فى مجلة «المجلة» - نضر الله أيامـها - ربما يكون شارة متـميزة لملكة محـمود شاكر الشاعـر والناقد والمحقق ، بل نزعم - وليس الزعم مطية الكذب دائمًـا - أنه فى هذا الكتاب قدم «نظرية نقدية» فى قـراءة الشعر وتذوقـه ، وانفرد ببيـان شاف عن قضيـة «الوحدة العضـوية» وما أثير حولهـا - حديثا - من لغط وغلط ، وقـد تعرض لها شـيخنا الأكبر عباس العـقاد ، وغلا فيها غلوًا شديدًا ، وإن كان ارتأى مـعالمها جلية لدى شاعره الأثير ابن الرومى ، ونحن - مع إجلالنا للعقاد - لا نشاطره الرأى فى هذه الوحدة كمـا ارتآها ، بل ربما نراها أقرب إلى الوحدة الاحتـمالية لا الحاسمـة كما يريغها هو ، ونعـتقد أننا أقرب إلى نظرية «أبو فهر» فى هذه المسـألة ؛ حيث فرَّق بين أزمنة الحدث والتغنى والنفس ، ولكل منها زمن ، يلتقى بعد تشعيث بأخيه ، فتحدث هذه الوحدة .

«ونمط صعب ونمط مخيف» ضرب من الكلام يعسر على غير الأستاذ شاكر ، بل إنه ليتلبسه فى «كمال الاتصال» فلا يمهر إلا باسمه ، وهو سبع مقالات مطولة استغرقت أكثر من أربعمئة صفحة من القطع الكبير عن قصيدة واحدة نسبت خطأ لتأبط شرا ، دار الكلام فيها على كل مسائل التحقيق والعروض واللغة ، وتذوق الشعر ونقده ، ونقد السند والرجال ، وتمحيص الكتب والروايات وقضية الشعر الجاهلى عامة ، وترجمة الشعر .

وربما يخال القارئ أو يتوهم أن هذه مباحث افترعها الناس ، وأفاضوا فى القول فيها ، بيد أن الخيال أو الوهم سرعان ما يرتد حسيراً حين يطالع هذه الصفحات فى معالجتها الصابرة الشديدة العمق ؛ ليصل مع المؤلف إلى استظهار نسبة هذه القصيدة إلى ابن أخت تأبط شرا ، من خلال تقصٍ هائل للكتب القديمة ورواياتها ، ومسائل الجرح والتعديل ، وبخاصة حين تعرض للقفطى وروايته فجرحها ، ونكأ عند المؤلف جرحاً قديماً حين عالج غرائب القفطى فى روايته عن دير الفاروس ودرس أبى العلاء فيه ، وذكّره بأشجار الدردار فى كمبردج ، وتقف من خلال هذه المناقشة المستوعبة على كلام جيد محكم عن الفروق بين الشعر المصنوع والمنحول ، وهى قضية تلوّم فيها أبو فهر طويلاً فى مواطن أُخر ؛ لأنها كانت قضية العصر ، وقضية أمة يراد العبث بشعرها وبتاريخها ، ومع هذا النقد التاريخى تدسس المؤلف من ثنايا القصيدة إلى استظهار نسبتها إلى ابن أخت تأبط شرا ، مما يعرف بالنقد الداخلى ، وللمؤلف باع هائل فى تذوق الشعر على طريقته هو ، وربما ينفرد بها انفرادًا خالصًا فى تاريخنا الحديث ، إلى جانب فئة قليلة تشاركه هذا الانفراد .

هذه القصيدة تعرف «باللامية» وأولها :

إن بالشعب الذى دون سلع لقتيلا دمه ما يطل

وقد تلوم الأستاذ شاكر لدى بحرها ، وهو المديد الأول «فاعلاتن فاعلن فاعلاتن» مع ما يداخله من زحافات ، وناقش سر تسميته بالنمط الصعب لدى القدماء ، ولدى عبد الله الطيب من المحدثين ، وارتأى المؤلف أن للوتد فعلاً فى تلك الصعوبة وأن موقعه فى التفعيلة الأولى والثالثة فى الوسط ، وفى الثانية فى

الطرف ، يقف وراء كثير من تلك الصعوبات ، والتى تقتضى مهيعاً من الكلام يناقض الكلام فى وزن آخر ، وربما كان كلامه فى هذه الزحافات ومكان الأوتاد ، ومناسبة البحر للغرض الشعرى من أدق ما قرأنا فى النقد الحديث . واستطرد المؤلف إلى حديث طويل فى الدوائر العروضية وهو حديث شائك ، ينبئ عن مقدرة هائلة فى الفهم والتذوق ، والتفسير والتعليل ، وارتأى نمطاً آخر من الوزن لضبط هذا البحر ، وهو «فاعلن مستفعلن فاعلا . . تن» ليكون الوتد «علن» فى الطرف ، تخلصاً من دورانه بين الطرف والوسط فى وزن الخليل ، مع «ترفيل» يلحق التفعيلة الثالثة «فاعلا . . تن» أو «فاعلن تن » .

لا ريب أنه اجتهاد ترفده دربة وشجاعة محمودة من الأستاذ شاكر أن يستدرك على القدامى - مع تجلته لهم - وقد صنع هذا الصنيع فى تفسير بعض الكلمات فى القصيدة ، المؤدى إلى فهم المعنى على غير ما فهمه القدامى ، وكان أبو فهر شديد الإحماض حين علق على أبى العلاء والمرزوقى والتبريزى ، ورأى فى كلام الأخير برودة وسخفًا ، ربما كان - كما قال متظرفًا - مستمدّا من طبيعة «تبريز» المعروفة ببردها الشديد !! .

بيد أن اجتهاده فى الوزن لا ينهض بما يريد الوصول إليه ؛ لأننا نحتاج إلى تأويل فى اجتهاده ، وأولى من التأويل عدم الحاجة إليه ، ولأن «الترفيل» شىء افتراضى لا يسنده الواقع « ففاعلن + تن» هى «فاعلاتن» والوتد هنا فى الوسط ، وما قبله فى الطرف ، فنحن نفر إلى ما أرغنا الفرار منه ، ولأن ثمة بحوراً أو بالتحديد ضروبًا من البحور ، تضارب فيها موقع الوتد ، ولم تنعت بأنها نمط صعب ، وأبرز مثال على ذلك هو «مخلع البسيط» وهو فى رأينا بحر قائم بذاته ، وليس جزءًا أو صورة من البسيط ، وتفعيلاته «مستفعلن فاعلن فعولن» فالوتد فى الطرف فى التفعيلة الأولى والثانية وفى الثالثة فى أولها ، وفى الرجز فى إحدى صورة «مستفعلن مستفعلن فعولن» حين يدخله مثل هذا الزحاف ، وهو كثير قديمًا وحديثًا ، والرجز حمار الشعراء فى القديم والحديث الآن ، بل إنه صار أشد الحمير بؤسًا فى الشعر الحر ، ولأن الزحافات تغير كثيراً من موقع الوتد فى كثير من بحور الشعر لا نستطرد إليها الآن ، وهى مهمة لأنها تنفى عن الوزن ما

يمكن أن يسمى «رتوباً» لو كانت التفاعيل تامة غير مزاحفة ، والشعر العربى فى نماذجه العليا مدين للزحافات ، وتاريخ إجاداته ، وتاريخ زحافاته .

والأستاذ شاكر فى إلماحة جيدة ، يذكر أن التفاعيل مفردة لا تؤدى نغماً ، وقد كرر ذلك مرتين ، مومئًا فى إبانة إلى فساد النظام الذى يقوم عليه الشعر الحر «التفعيلة» ، لأن الشعر يأتى من «نسق خاص» تأتى عليه التفاعيل فتؤدى نغما يمكن وحده أن يسمى شعراً ، وما يخرج عن ذلك فهو آبق يمكن أن يسمى شيئًا آخر غير الشعر ، الذى يعزى إلى أدب هذه الأمة ، ولا يعنى أن الأستاذ شاكر يغلق باب الإبداع ؛ لأن النظم على وزن مخترع لا يقدح فى كونه شعراً ، كما يقول الزمخشرى وكما تقول الفطر السوية ، بشرط أن نئول فيه إلى نظام وقاعدة يحتملان التصويب والتخطئة ، وإلا فإن الفساد والخلل يتفشيان ويصبحان قاعدة ويئول غير النظام نظاماً .

وثمة إشارة أخرى إلى ضرورة النغم والإيقاع ، ألمح إليها خطفًا، وهى تزلزل ما تقوم به دعوى ما يسمى «قصيدة النثر» وهى من البداهة إلا لدى من لا يعرفون البداهة!! .

ومع أن مساوقة الوزن لمعانى الشعر لا تزال دائرة فى محيط الفرض والاحتمال، وأن كلامًا معينًا يصب فى وزن معين ليس ضربة لازب ، فإن «أبو فهر» استطاع أن يقيم علاقة حميمة بين هذا النمط الصعب المخيف وغرض الكلام القائم على التذكر ؛ مما يجعل القارئ يهتف بالموافقة ، بيد أن هذا مطلب قصى لا تستطيعه إلا فذاذة الأستاذ شاكر ، وتذوقه لمستسر النغم السارى فى تجاليد الكلام ، وشىء كثير من مثل هذا سرى فى ثنيات شرحه للقصيدة ، وفى وقوفه على خبء الوحدة التى لهج بها المحدثون ، وألمح إليها القدامى ، وارتآها وحدة ذات شعب حسب تشعيث الأزمنة - كما أشرنا آنفا - وقد راض المؤلف هذا البحث رياضة جيدة ناهضة ، فوجد سريان الوحدة - فى نوع منها - فى حنايا القصيدة دون انفعال ودون تزيد .

لم يقف الأستاذ شاكر على لزوم ما لا يلزم فى القصيدة ، ومن المؤكد أنه كان سيرى فيها ما لانرى حين يعالج اللزوميات ، وأنها قديمة في الكلام العربى لا

نقف بها عند كثير عزة - فى تائيته الملتزم فيها اللام قبلها - لأن قصيدة جاهلية التزم فيها قائلها تضعيف اللام فى القافية ، لا ريب أن لهذا فعلاً فى النغم والأداء، وأنه ليس فضلة لا فى الموسيقى ولا فى المعنى ، بل يمثل إضافة إليهما ، لو أن الأستاذ شاكر أراق على هذه المسألة فيضًا أو حتى وشلاً من فكره وتذوقه لرأينا شيئًا عجبًا .

والحق أننى فاتحت الأستاذ شاكر - بَرَّد الله مضجعه - فى هذه القضية ، وكان رحمة الله عليه يهتم بما أكتب فى العروض - لا أقول ذلك بأواً وإن كان وارداً خاصة إذا كان الاهتمام من مثله - فلم أظفر منه برد كلامى ، وإنما لمحت فى عينيه نظرة العُقاب الهرم الآسية على أن شيئا مهمًا فاته ، فلم ألحف عليه فى الكلام ، وكثيرًا ما كان يستقبل مناقشاتى بصدر متراحب ، وربما كان يسخر متعاطفا من حماستى .

واختتم الكتاب برد مفحم على ترجمة لترجمة جوته لهذه القصيدة إلى العربية وكانت الباعث وراء هذه المقالات كلها ، فضلاً عن نقد ليحيى حقى الذى خانقه بود ، ووده بخناق . انتقد أبو فهر هذه الترجمة وأبان عَوَارها ، وهى فى الحقيقة شىء مهلهل لا صلة له بالعربية ، وحسبنا أن الترجمة جعلت للجمال حوافر ، وأن هذه الحوافر تتحطم ، والترجمة بالنص : «ألقوه فى مناخ غليظ ، على صخر وعر ، تقف فوقه الجمال فتتحطم حوافرها» وهو كلام يدابر العربية ، ويدابر الفكر الصحيح ، ورد الأستاذ شاكر من النمط العالى المفعم سخرية وتهكمًا ، ولكن فى أدب رفيع ، لايزال يذكره قراء «المجلة» ، وغير معروف على وجه الشيوع أن شاكرًا من المتمكنين فى اللغة الإنجليزية ، ولايزال المخضرمون يذكرون له ترجمات «المختار» ، وإن كان قد صدف عن هذا النشاط منذ أمد .

هذا كلام يسير عن محمود شاكر ، الذى لم يفهمه الناس على حقيقته ، ولو عادت الأمة إلى وجهها السوى لعاذت بوجه محمود شاكر - الوجه الأصيل المجدد- حين تزدحم الوجوه .

مداخل إعجاز القرآن
للأستاذ محمود شاكر

هما مدخلان فقط فى هذا الكتاب الصادر عن مطبعة المدنى فى سنة ٢٠٠٢ - ١٤٢٣ ، والمدخل الثالث ضمه كتاب آخر بعنوان «قضية الشعر الجاهلى . فى كتاب ابن سلام» ، وصدر عن المطبعة السابقة سنة ١٩٩٧ - ١٤١٨ ، وبيَّن أن الكتاب الثانى شديد الآصرة بالكتاب الأول ، لدى مؤلفه ولدى قارئه ، ولو أنسئ للعلامة الجليل أبى فهر محمود محمد شاكر فى أجله ، لجعل الكتابين واحداً ، بيد أن الأجل قد حم ، فاجتهد من قدم الكتابين ، فى هذا الفصل ، وإن كان القران بينهما أبين من أن يدل عليه .

الكتاب الذى نحن بصدده - وإن كنا سنعرج سريعاً على الثانى - مبحث رائد فى بابه ، أزعم - وليس الزعم هنا مطية الكذب - أننى لم أر رصيفًا له فى لغة العرب قديمًا وحديثًا ؛ حيث يجد قارئه اجتهادًا فى النظر والتحليل ، والإحاطة المذهلة ما تفتقر إليه مثل هذه المباحث على تنوعها وتعددها ، ومآل ذلك أن الأستاذ «شاكر» كتب كتابه أوان استحصاد قدراته ، وتمكنه الهائل من «التذوق» الذى يكاد ينفرد به بين أهل عصره ، بما فيهم أستاذه مصطفى صادق الرافعى ، الذى يكن له إعجابًا لا نشاطره إياه .

درس الأستاذ شاكر مسألة الإعجاز هذه دراسة تاريخية ، وإن كان قد ألم ببعض وجوه الإعجاز ، دون أن يوليها الكفل الأعظم من همه لأنها - هنا - ليست القضية الرئيسة .

حدد أولاً المعنى اللغوى لكلمة آية ، لأنها وردت تاريخيًا سابقة ، مقارنًا بين آية النبى محمد صلى الله عليه وسلم وآيات الرسل من قبله ، وكيف أن هذه الآيات مقترنة بأصحابها وبمن شاهدها من الجيل المصاحب لهم دون أن تكون ملزمة ، ومن ثم ينشأ العجز وانقطاع القوة وعدم الإطاقة ، وهنا يسلّم الناس

تسليمًا لا تردد فيه أن هذه الآية دليل نبوة بشر مثلهم،ولرجل من أنفسهم، نشأ فيهم صغيرًا إلى أن كبر فادعى ما ادعى من النبوة ، لا يسلمون تسليمًا حتى ينقطع شكهم بيقين فاصل . ، أن الذى يشهدونه من صاحبهم خارج عن طوق جميعهم ثم عن طوق جميع الخلائق ، وخارج أيضًا عن طوق صاحبهم الذى نشأ بينهم إلى أن ادعى ما ادعى من النبوة . والذى آتاه هذه الآية أو هذه المعجزة هو الذى لا يعجزه شىء ، هو الخالق البارئ ، هو الله رب العالمين .

أما معجزة محمد - صلى الله عليه وسلم - فهى باقية خالدة ؛ لأنها لم تتعلق بحادثة طارئة كإحياء الموتى وإبراء الأكمة ، وانقلاب العصا حيّة تسعى ، بل هى منوطة بالإنسان حيث كان ، وهذا ما صرح به القرآن الكريم﴿ **وَقَالُوا لَوْلا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِّن رَّبِّهِ قُلْ إِنَّمَا الآيَاتُ عِندَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ** ﴾ (العنكبوت ٥٠) .

وقد جاهد وجهد الأستاذ شاكر فى تحليل المعنى اللغوى ؛ حيث هو الأساس الذى تفرعت منه المعانى الأخرى من المجاز ، وتعانقت الكلمتان «إعجاز القرآن» و«معجزات الأنبياء» لدى الكتاب المحدثين ؛ حيث يرى أبو فهر أن كليهما لفظ محدث مولد ، وبيقين قاطع لا نجدهما فى كتاب الله ولا فى حديث رسول الله ، ولا فى شىء من كلام التابعين ومن بعدهم حتى انقضى قرنان ، فإذا بنا نجدهما فجأة لدى كلام أهل القرن الثالث ، ويسيران بكثرة لدى أهل القرن الرابع وما بعده إلى يوم الناس هذا ، وارتبط بلفظ الإعجاز لفظ آخر هو «التحدى» ومر عليه من الندرة والشيوع ما مر على اللفظ الأول ، حتى ظهر على استحياء فى كتابات الجاحظ ، ولاسيما فى رسالته «حجج النبوة» فهو يجمجم به مع شدة حاجته إليه يقول : لأن رجلا من العرب لو قرأ على رجل من خطبائهم وبلغائهم سورة واحدة طويلة أو قصيرة ، لتبين له فى نظامها ومخرجها وفى لفظها وطبعها أنه عاجز عن مثلها ، ولو تحدى بها أبلغ العرب لظهر عجزه عنها» ، ومع اقتران اللفظين التحدى والعجز فإن الجاحظ لم يقل «إعجاز القرآن» ، وكانت منه على طرف الثمام .

وقد تتبع الأستاذ شاكر تاريخ هذا اللفظ لدى شيوخ المعتزلة - ومنهم الجاحظ - وتناول كلامهم بشىء غير قليل من اللذاعة ، فهم أهل كلام وتشقيق ، ومثل هذا

النعت يخرج كثيرين منهم عن نطاق التذوق وبيان وجوه الإعجاز ، وعرض أبو فهر لكثير من آرائهم وبيَّن فسادها ، وما جرت إليه من محن ، حيث ولجوا هذه البابة من نافذة «الإلهيات والنبوات» ، وفسروا عجز الخلائق عن مجاراة القرآن بترك المعارضة أو بما يسمى «الصرفة» ، وهى لم تقنع أحدًا ، فضلاً عن شيوخ المعتزلة أهل الرأى والنظر والاستدلال ، وفرق أبو فهر بين العجز والإبلاس ، ولعل شيخنا قد وقع فى شىء غير قليل من الحيرة والخشية من ولوج هذه البابة المحفوفة بكثير من المخاطر ، كما أشار هو نفسه ، ولكنه مضى إلى غاية الشوط التاريخى ، متقصيًا ومبحرًا فى تيه طفق يتبلج قليلاً قليلاً ، حتى رأى أن الجاحظ لم يطق الاعتقاد بالصرفة ، التى مبعثها هياج الطبائع المفطورة على إلف الجدل والمغالطة وحب الظهور على الخصوم ، كما حدث مع أبى الهذيل العَلاَّف وابن أخته أبى إسحاق النظام .

ويشهد المرء أن كلام المعتزلة على فجاجته فى هذه القضية دالٌّ على أنهم جبابرة العقول والجدل ، حتى ولو كان على سبيل المغالطة التى تقتضيها الحيرة والإبلاس؛ لأنهم يخرجون أو يحاولون الخروج من المآزق بأى طريق .

كما أن مناقشة الأستاذ «شاكر» لهم تشهد بأنه قريع لهم فضلاً عن «تذوقه» القليل المثال ، وقد بين أن الجاحظ بعد فزعه من هذه اللفظة «الصرفة» حاول أن يحوم حول هذه القضية لديه ، مدللاً بكلمات قلائل على وجه من الإعجاز ، مثل قوله : (نظم القرآن ، وبديع تركيبه ، وغريب تأليفه) . . . (وطبع القرآن ، ومخارج آياته ، وحسن بيانه ، وجمع المعانى الكثيرة بالألفاظ القليلة) . . . (والقرآن كتابنا المنزل؛ الذى يدلنا على أنه صدق نظمه البديع؛ الذى لا يقدر على مثله العباد) . . . (ولو تحدى أبلغ العرب بأقصر سورة منه لتبين فى نظامها ومخرجها ولفظها وطبعها أنه عاجز عنها) ، وهذه عبارة واضحة كل الوضوح تدفع القول «بالصرفة» مع أن الجاحظ لم يذكر عبارة «بلاغة القرآن» .

وأول من أطلق لفظ «إعجاز القرآن» هو أبو عبد الله محمد بن يزيد الواسطى المتكلم المعتزلى ت ٣٠٦ ، فقد ألَّف كتاباً عنوانه «إعجاز القرآن» ، واستخدم معها معجزة النبى ومعجزات الأنبياء ، وفشت هذه الألفاظ بعد الواسطى فى كل

الكتابات العاقبة حتى يوم الناس هذا ، وجاء بعده كتاب الرمانى «نكت فى إعجاز القرآن» ذكر فيه وجوه الإعجاز من جهة البلاغة ، ومن العسير تتبع هذا اللفظ فى كتابات العلماء من بعده ، ولكننا نذكر «الباقلانى» شيخ السنة ولسان الأمة ، وهو صاحب ذوق أدبى رفيع ، وإن كان قد جرته المجادلة إلى أن يبين عَوار الكلام الإنسانى بجانب الكلام الإلهى ، لأن المقارنة أوالموازنة باطلة أساساً ، لأن كلام الله مباين مباينة تامة لكلام الخلائق وإن كان فى طبقة معلقة امرئ القيس ، التى أخذ الباقلانى يفتشها باحثاً عن أوجه القصور فيها ، وأكل هذا البحث كثيراً من جهده ، وإن أبان عن بيان الباقلانى وحسن تأتيه للكلام ، والتدسس إلى فضائله ومثالبه ، وقد غاضت هذه المائية من البيان لدى القاضى عبد الجبار ؛ لأنه سلك طريق أهل الكلام . وأسلوبهم يعلوه صدأ كثير يجلب من الضرر أكثر مما يجلب من النفع ، ولاسيما فيما يتعلق بآداب اللسان وتذوق النفوس ، إلى أن جاء عبد القاهر الجرجانى الفقيه الشافعى ، والمتكلم على مذهب الأشعرى ت ٤٧١ هـ ، وهو أعرف من أن يعَّرف ، كانت تشغله قضية «إعجاز القرآن» ، واستوعب كل ما قاله السالفون عليه ، ووقف مليًا لدى ألفاظ الجاحظ الموحية ، وكذلك ألفاظ الباقلانى ، وكتب كتابيه «دلائل الإعجاز» «وأسرار البلاغة» وفيهما كلام نفيس عن البلاغة والفصاحة ووجوه الإعجاز ، وكشف عن نظرية النظم ، وهو إمام وحده، ومن جاء بعده عيال عليه حتى الآن ، وقد لبسوا طيلسانه ، وتخفوا فيه ، وإن أنكروا ذلك كله أو بعضه ، لكنهم مكشوفون فى كل حال ، ويحسن أن نورد عبارة دالة للجرجانى ، حيث يقول :

«ولم أزل منذ خدمت العلم أنظر فيما قاله العلماء فى معنى الفصاحة والبلاغة، والبيان والبراعة وفى بيان المغزى من هذه العبارات ، وفى تفسير المراد بها ، فأجد بعض ذلك كالرمز والإيماء والإشارة فى خفاء ، وبعضه كالتنبيه على مكان الخبىء ليطلب وموضع الدفين ليبحث عنه فيخرج . . . ووجدت المعول على أن هنا نظمًاوترتيبًا وتأليفًا وتركيبًا ، وصياغة وتصويرًا ، ونسجًا وتحبيرًا» .

ورجع الأستاذ شاكر هذه الألفاظ الثمانية إلى ما تومىء إليه فى كلام السالفين، وما يضيفه الإمام عبد القاهر حين يطبقها ، وحين يفسرها التفسير الواضح المبين ،

ولم يكن ليتم له ذلك لولا جبلته المفطور عليها فى تذوق البيان ، وما اكتسبه من طرائق الكلام لدى فحولة الشعراء ، لكن هذا كله - كما أحس الأستاذ شاكر وكما أحسست أنا - لا يزال إشكالاً أحيل إلى إبهام . وأن الوقوف على وجوه الإعجاز القرآنى مما لا يتأتى كله بحال ، وإن بدا منه شفيف لدى الوجدان المصقول ؛ حيث تنقطع الأطماع ، وتحسر الظنون ، وتسقط القوى ، وتستوى الأقدام فى العجز ، وكلها صفات قرت فى نفس عبد القاهر وشاكر ومن يشاطرهما تلك النعوت .

ثم يختم الأستاذ شاكر هذا المدخل بنفثة مصدور ، سببها ثرثرة أهل زماننا الذين لا يملكون إلا الدعاوى الفارغة ، ممن يهونون من شأن البلاغة ، وهى بابتهم إلى فهم أسرار القرآن ؛ لأنهم قتلة للبيان الذى شرف به الإنسان ﴿ **لَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلا تَعْقِلُونَ** ﴾ (الأنبياء ١٠) .

وإذا كان الإمام عبد القاهر لم ينته إلى استيفاء الكلام مع قدرته عليه ، فإن فى الأستاذ شاكر قربًا منه فى هذه الخلة ، فكأين من مقالة لم يتمها مع قدرته على التمام ، وتلك جبلة لا ينتزع منها المرء نفسه إلا بشىء غير قليل من عدم إطاعة النفس .

وهذا المبحث عاجلت المنية شيخنا عن إتمامه ، لكنه قد تحدث فى المبحث الثانى عن كتاب «الظاهرة القرآنية» لمالك بن نبى ، تناول فيه ما يراد بهذه الأمة ، من معارك السلاح والثقافة ، ثم ناقش المؤلف آراء مالك بن نبى فى قضية «الشعر الجاهلى» ، وهى قضية القضايا فى فكر الأستاذ شاكر ، وأم مباحثه ، وخالف مالك بن نبى فى نتائجه حين قرن الشك فى الشعر الجاهلى بقضية تفسير القرآن ، مرتئيًا أنهما ليسا من بابة واحدة ، لايمسه شك مرجليوث ولا غيره ممن أخذ طريقته، وأن مدار الأمر كله على أن الشعر الجاهلى أحد الأدلة الكبرى على إعجاز القرآن ، كما ذكر الأستاذ شاكر فى كتابه «قضية الشعر الجاهلى فى كتاب ابن سلام» ، وخلص إلى أن القرآن المعجز هو البرهان القاطع على صحة النبوة ، أما صحة النبوة فليست برهانًا على إعجاز القرآن .

وقد استحضر أبو فهر فى قضية الشعر الجاهلى المحنة القاصفة التى اعتورت أهل الجاهلية حين سمعوا القرآن ، وقد امتحنوا بها دون غيرهم من البشر ، وهم أهل بيان وتذوق يكادون ينفردون به عن أصحاب الألسنة ، لكنهم خرجوا من هذهالمحنة بشهادة جازمة بحسن بيانهم وتذوقهم العميق لأسرار الكلام ؛ ولذا كانوا أهلاً لأن يسمعوا القرآن ، وأن يقوم به رجل منهم ، وأن تكون معجزته باقية بقاء الناس وأن يشهد له الإنس والجن مقرين بالعجز ﴿ **قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً** ﴾ (الإسراء ٨٨) .

ومن ثم كان شعرهم الذى هو مجلى بيانهم سبيلهم إلى تذوق القرآن الكريم واعترافهم بمباينته لكلام البشر ، وخلص الأستاذ شاكر إلى حقيقة أدبية عالية ، حيث ارتأى أن الشعر الجاهلى والشعر فى صدر الإسلام كان فى الذروة من البيان والبلاغة ، وأن نزول القرآن لم يطمس هذه الإجادة الغالية فى شعر صدر الإسلام بل ظل الشعر على روعته وأسره ، وأخذه بمجامع القلوب ، وكان سبيل الناس إلى تذوق القرآن الكريم

وأخذ الأستاذ شاكر يشرح معنى «التذوق» لأنه اعتورها كلام كثير من ثرثرة القوم ، فكل من خط كلامًا يتحدث عن التذوق ، وكل من عرف حروف الهجاء فى النقد يلفظ بالتذوق ، وهو فى الحقيقة عمل مضن لا يتيسر إلا لأفذاذ من الناس فى صدارتهم أبو فهر ، ويحسن أن نورد كلمته فى هذا «وقد ابتليت أنا بمحنة الشعر الجاهلى عندما ذر قرن الفتنة أيام كنت طالبًا فى الجامعة ، ودارت بى الأيام حتى انتهيت إلى ضرب آخر من الاستدلال على صحة الشعر الجاهلى . لا عن طريق روايته فحسب ، بل عن طريق أخرى هى ألصق بأمر «إعجاز القرآن» ، فإنى محصت ما محصت من الشعر الجاهلى حتى وجدته يحمل هو نفسه فى نفسه أدلة صحته وثبوته ؛ إذ تبينت فيه قدرة خارقة على «البيان» وتكشف لى عن روائع كثيرة لا تحد . . . وهذا الانفراد المطلق ولا سيما انفراده بخصائصه عن كل شعر بعده من شعر العرب أنفسهم ، هو وحده دليل كاف على صحته وثبوته» .

والبابة إلى هذا اليـقين الشاكرى هو تذوق الكاتب نـفسه ، وقارئه محـتاج إلى قسط من هذا التذوق ؛ إذا أخذ الأمر مأخذ الجد لا الثرثرة ولا التخليط - ليكسب مثل هذا اليقين ، وما هو ببعيد . . لكنه فى حاجة إلى إنضاء الرواحل حتى بلوغ المقصد .

انفرد الأستاذ شاكر بهذا الدليل الذى اهتدى إليه بعـد معالجة عسيرة فى مجاهل الشعر الجاهلى ، وقـد نفذ منها إلى قضية الإعـجاز ، حيث هما قضيـة متشابكة الأغـصـان والفـروع ، ولم يقف عند الكـتب الكثيـرة التى ردت على دعـاوى الانتحال، وإن أفاد منها ، لكنها فقط كانت ظهارته .

وينبغى أن نذكـر هنا - وفى غيـر هنا - أن لغة شاكـر مفـردة فى بابها ، وإن كانت فيهـا أثارة من كلام سابق ، ولكنها أثارة لا تنفى أصالة صاحـبها بل تزيدها كما تزيد المرآة النور نوراً ، ونحس حين قراءتها بشىء من الزهو غير قليل ، حيث تبلغ معه اللغـة أقصى طاقاتها روعة وبـيانًا ، وهى بهذه المثابة كفـاء لهذه المباحث الشريفة . وأشرفها «إعجاز القرآن ، وبلاغة القرآن» .

«أبو فهر: بين الدرس الأدبى والتحقيق»

أبو فهر عانى العربية تفسيـرًا وحديثًا وفقهًا ، وأدبًا وتاريخًا ، ولغة ، وفكرًا ، وجرد حياته كلها لها ، فأفضت إليه بمكنونها ، وزهد فيما سواها ، فأقبلت عليه، وصدف عن الجامـعة فخطبت وده ، ونأى عن الشهرة ، فـحظى بأفضل منها وهو التقدير ، ومعاناته هذه لاتزال ، ولذا يعسر على من يقترب من فكره أن يكتشفه ، وينفذ إلى جـوهره إلا بمثل معاناة الشيـخ نفسه ، أو بما يقاربهـا على الأقل ولهذا كنت مشفقًا على الدكتور محمود إبراهيم الرضوانى مؤلف هذا الكتاب النفيس من اقتحام هذه المجاهل المستسرة ، والأغوار البعيدة التى تسمى محمود شاكر ، بيد أن إشفاقى مـا لبث أن غدا إعجاباً بذلك الـسفر الضخم ، الذى كابـده المؤلف حرفاً حرفـاً ، وعاشـر الأستـاذ شخـصًا وآثارًا ، وكـان موضوع الـباحث فى رسـالته للماجستير .

ومحمود شاكر رجل بعيد الرضا ، يذكرنى بابن حزم القرطبى فى مضاء فكره، وحدة لسـانه كسيف الحـجاج ، غير أنـى أشهد أن حدته كـانت فى موضعـها ، ومفصلة على قد الموقف ، أى كـانت موضوعية لأن الناقد أحـياناً عليه أن يحمل عصـا التأديب فى بعض المواطن التى لا تجدى فـيها عبـارات مائية يطلقون عليـها «موضـوعية» ملقًا وبـهتانًا ، غيـر أن الحدة - وهى تعدى - لم تعـد الباحث ولم تتـسرب إلى قلمـه ، مع أنه فى حـدة الشبـاب ، وهو يغـرى بها ، فـتناول آراء الأستـاذ، وآراء خصومه - ومـا أكثرهم - بكثـير من الهدوء وأكاد أقـول الرقة ، مناقشا إياها فى صـبر وحماسة مـحسوبة ، ربما كانت «الماجسـتير» وراء شىء من هذا، لا أفتأ يساورنى العجب من الباحث - وهو من الصعيد - أن يكون بمثل هذه الوداعة المطمئنة .

تناول الباحث فى التمـهيد حياة مـحمود شاكر فى وجـازة وخطوط عامة ، ثم درس فى الفصل الأول قضية «التـذوق والمنهج» وحلل مصطلح التذوق عند شاكر

ومدى عسره ، ويكاد لا ينطبق إلا على محمود شاكر ، لأنه اهتدى إليه بعد رحلة نفسية عاصفة فى بداية حياته بالجامعة ولقائه بطه حسين ، ثم عرض فى الفصل الثانى لقضية «السيرة الفنية» عند شاكر وكتابه عن المتنبى ، وفى الفصل الثالث عرض لمسائل كثيرة فى النقد الشعرى ، وفى الرابع تناول قضايا اللغة والأدب عند محمود شاكر ، وفى الفصل الأخير تحدث عن منهج أبى فهر فى تحقيق التراث ، والفصول كلها تتمتع بسلامة العرض والنظر ، ودقة التناول وأمانته ، وإن كنت اختلف مع الباحث فى بعض القضايا كموقف الأستاذ شاكر من معركة وحى الأربعين ، الذى وافقه الباحث ، وكموقفه المتشدد من الأعاجم ، ويعلم الأستاذ شاكر أننى لا أدين هؤلاء جملة ، ولا أقبلهم جملة ، وإن كنت أكره أن نكون ذيولا لهم ، وهم قوم خلطوا عملاً صالحًا وآخر سيئًا ، فلنقف عند عملهم الصالح ، وهو جيد وكثير .

افتقدت فى هذا الكتاب القيِّم فصلاً صغيراً عن محمود شاكر شاعرًا ، وأراه من الأهمية بمكان ، فالشاعرية هى مفتاح شخصية شاكر ، ولولا جرثومتها ما رأينا له منهجه هذا فى التذوق الذى يكاد ينفرد به ، وفى الكتاب عرض جيد وتسجيل لفكر أبى فهر النقدى والأدبى ، إلا أنه غلب على جانب النقد الذى كنت أنتظره من الباحث ، وأعتقد أن البحث فى شخصية كمحمود شاكر عسير وصعب ، وفتنة الباحث - أى باحث منصف - به شديدة ، والتفلت منها صعب ، لذا غلب- فيما أعتقد - جانب العرض والتسجيل على جانب النقد ، ومع ذلك فالجهد محمود عن محمود شاكر ، ومن محمود الرضوانى .

اعصفي يا رياح

أبو فهر محمود شاكر ، حجة ناهضة على تواصل الخيط الذهبى للشعر الأصيل فى أصلاب هذه الأمة ، وخسارة فادحة أن يعرفه الناس محققا وعالما بالعربية شعرها ونثرها وأن تتأخر هذه المعرفة به شاعرًا ، وهو مسئول عن حجب شعره ، وإن كان قد نشر قصيدته المطولة «القوس العذراء» ، ولم تصب ذيوعًا كبيرًا باستثناء دراسات قليلة متخصصة ، لكن حجب شعره لم يحجب شاعريته التى تتسرب فى أعراق كلامه ، تذوقًا ونفاذاً وكتابة وطريقة حياة ، حيث كنت ألمح فى معارف وجهه ، وبدوات حياته سرائر الشاعر وقسماته النفسية ، وحسن أن تتم ملامح الصورة ، أو تكون فى طريقها إلى التمام بنشر هذه المجموعة من القصائد، جمعها وحققها ولده الدكتور فهر ، وقدم لها دارسًا ومحللاً وناقدًا الدكتور عادل سليمان المحقق والكاتب ، والأستاذ الجامعى وقد بسط مقدمته بسطا شافيًا ، حلل فيه القصائد واتجاه الشاعر ، مقارنا بينه وبين بعض قرنائه واعتذر أنه وقف فى مقدمته فحسب لدى المضمون ، واعدًا أن يستوفى الكلام عن الأداء الفنى فى دراسة مستقلة ؛ خاصة بعد أن طالت هذه المقدمة إلى ١٣٦ صفحة ، ولعلها أطول مقدمة عرفناها لديوان فى العصر الحديث ، وقد قدم عادل سليمان شرحًا لبعض المفردات الصعبة ، مجتهداً فى الفهم ، مرتبا للقصائد تاريخيا ، كما صنع أبو فهر فى دراسته عن المتنبى ، راسما له عمود الصورة .

وبدايات القصائد كتبت سنة ١٩٢٦ ، والشاعر فى السابعة عشرة ، وهى سن لا ينضج فيها الناس مثل هذا النضج الذى نلمحه لدى الشاعر ، فى التجارب والتعبير ، حقيقة تعكس التجارب تمرداً وحيرة قلقة ، وحزنًا لاعجًا ، مما يناسب سن الفتوة أو الصبا ، لكن يوازى هذا الخط الفرح العارم بالحياة ، والكبرياء الباذخة فى الحب ، وكلا اللونين صادق فى الوشاية عن وجدان الشاعر الذى وقف الناس على عقله وفكره ، وظل وجدانه فى كثيف من الحجب ، التى غزلها الشاعر حول نفسه .

«اعصفى يارياح» عنوان الديوان وقصيدة فيه ، تصلح قصيدته أن تكون عنوانًا لكل شعر محمود شاكر حتى فى الدواوين المخطوطة التى تعد للطبع الآن ، فالعاصفة تمرد على الآسن الراكد فى كل حياتنا ، تهدم لتبنى ، ولعل القصيدة ترسم فى الوقت ذاته العاصفة المسماة محمود شاكر ، التى لم تهدأ قط حتى آخر أنفاسها ، وكان فيها العُقاب الهرم ، لكنه العقاب على كل حال ، وهذه العاصفة تقف وراء قصائده «من ديوان البغضاء» ولعل البغضاء هنا الوجه الآخر للحب والتعلق ، لأن الشاعر يدخل المعركة منشقّا على ذاته ، مستجيبا للطبيعة الإنسانية بين آدم وحواء .

فى الديوان أداء عال جدًا ، فى القصائد ذوات القافية الموحدة ، وفى التنويعات الموسيقية الأخرى والشاعر لاعب ماهر ، حاذق ، يصوغ لغته صياغة فيها أثارة من قديم فى ثوب جديد ، ربما تلمح فيه أثرًا من ابن الرومى فى بائيته عن الأسفار ، أو طنينًا من المتنبى ، أو حفيفًا من غابة الشعر الجاهلى ، أو شوقى ، لكن امتلاكه للكلام لا يهتز بهذه التأثرات ، التى تكون أحيانًا حسنة من حسنات الشاعر المقتدر خاصة إذا لم تكثر ، والكلام من الكلام كما يقول القدامى . يعجب المرء حين يستمع إلى بعض المتعجلين واصفين محمود شاكر بالتقليدية والسلفية ، دون أن يدركوا أن شعره ينقض كلامهم تماماً ، فالرجل تتجاوب فى نفسه أصداء التجديد كما رآها عند جماعة الديوان وغيرهم ، ولعل فهمه لمفهوم الشعر ونقده عند العقاد من أدق ما نعرف وقد طبقه على شعره ، أو استجاب له طبعه على الأقل لأنه هداه إلى نفسه ولأصالة الشاعر من ناحية أخرى ، وربما كانت قصيدته عن «الشجرة ناسكة الصحراء» فيها أثر من «توماس هاردى» بترجمة العقاد ، وربما يكون شاكر قد قرأها فى نصها الأصلى ، وفى الديوان شواهد على ترجمته للشعر ترجمة شعرية رائقة ، ووقع عَلى (هاردى) سيد قطب ، وحمزة شحاتة ومحمود حسن إسماعيل ، والقصائد تغرى بموازنة جيدة بين هؤلاء الشعراء ، وتمتاز قصيدة شاكر بالإتقان وإحكام العبارة إلى درجة ربما لم تتيسر لأقرانه ، مع حفاظه على قسماته هو ، وقد عزف الشاعر وهو فى طراءة الصبا على أنغام الشعر العربى فى إجادة تحمد له ، كما تحمد للوزن فى الوقت ذاته .

محمود شاكر وجه الشاعر فيه وجهه الأول ، وإن تخفى، وهو من المجددين ، ولعل عاصفته تجرف وجـوهًا صفيقة يلعنها الشعر فى أفقه العـالى المبين فيهوى بها إلى أسفل سافلين ولا الضالين آمين .